**الندوة الوطنية**

# البعد الإنساني في الفكر الصوفي ودوره في نشر الإسلام

أ. شارفي عبد القادر
جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف
البريد الالكتروني: a.charfi@univ-chlef.dz

**المحور 2: الابعاد الإنسانية للتصوف**

**عنوان المداخلة:**

**البعد الإنساني للتجربة الصوفية عند الأمير عبد القادر الجزائري**

**عناصر البحث:**

1. مقدمة
2. التصوف كرسالة أخلاقية
3. الأمير عبد القادر والتصوف
4. خصائص التصوف عند الأمير عبد القادر
1.4 تأثير الطريقة القادرية في تصوفه
2.4 المشرب الاكبري في تصوف الأمير عبد القادر
3.4 شمولية الرحمة عد الأمير عبد القادر كمؤشر على البعد الإنساني في تصوفه.
5 خاتمة

## 1. مقدمة:

ان تعدد صور شخصية الأمير عبد القادر الحسني الجزائري من كونه العالم والاديب والشاعر الى المجاهد الباسل والسياسي المحنك والمؤسس الأول للدولة الجزائرية الحديثة، فان ذلك كله يرتد الى روحه الصوفية التي نشا وتربى عليها. فهي بهذه الخاصية جعلت من تصوفه تصوفا عمليا ينخرط بصاحبه في غمرة الحياة محاولا قدر جهده ان يسبغ واقع هذه

الحياة بقيم واخلاق التصوف المستمدة بدورها من تعاليم الدين الإسلامي كما نص عليه القرآن والسنة وسيرة السلف الصالح.

ان روح التصوف التي تشبع بها الأمير منذ صباه اهلته لان يصبو او تكون له همة السالكين الذين يبغون الوصول وهي مرتبة الانسان الكامل مقتديا في ذلك بسيرة الأنبياء _ صلوات الله عليهم _ واولياؤه الاصفياء. تلك الروح الصوفية هي ما نحاول الوقوف عليه في هذه المداخلة في بعدها الإنساني الذي امتاز به الأمير ودعا اليه وتمثله في مواقفه المختلفة، حتى أصبح انموذجا له يقتدى به.

## 2. **التصوف كرسالة أخلاقية**

يذهب ابن عربي في كتابه الموسوعي "الفتوحات المكية" الى رد التصوف الى الاخلاق، قائلا في ذلك ان التصوُّفَ أخلاقٌ مُطهَّرَةٌ مع الاله فلا تَعْدُلَ به نَسَبَا

معللا ذلك بما هو مُجْمَعٌ عليه عند اهل الطريق، "قال اهل طريق الله: التصوف خُلُقٌ فمن زاد عليك في الخُلُق زاد عليك في التصوف ... "[1] وقد سبق لابي حامد الغزالي في كتابه "المنقذ من الضلال" ان اكد على هذه الخاصية الاخلاقية للتصوف، حين اقبل على طريق الصوفية قائلا: "علمت أن حاصل علومهم قطع عقبات النفس، والتنزه عن اخلاقها المذمومة

[1] محي الدين بن عربي، الفتوحات المكية. مج 3 ، ضبطه وصححه ووضع فهارسه: شمس الدين أحمد منشورات بيضون محمد علي. دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان. ط1،1999. ص 400، 401

وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بها الى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله"[1] وإذا ما علمنا ان التصوف انما كان امتدادا لمرحلة الزهد وان تميز عنه فيما بعد، فان الزهد هو خلق من مستوياته العليا التخلي عما هو فان من متاع الدنيا ومن التعلق بما في ايدي الناس والتعلق التام بالله تعالى، وهذه الدرجة انما يبلغها الزاهد بكبح شهوات النفس وتطهيرها من كل شائبة والتحلي بالفضائل، وهو المعبر عنه بالصفاء (نسبة لأهل الصُّفَة زمن النبي ﷺ ) الذي أصبح دالا على مفهوم التصوف. تلك الدلالة هي ما ركزت عليه "المصطلحية التي اوردها الطوسي والكلاباذي بناء على مجموعة من الاخبار والاقوال المأثورة، ان التصوف استقر على دلالة الصفاء، وأن الاستعمالات كانت تصب كلها في المجال الاخلاقي بتصفية السريرة..."[2]

وكون التصوف مرتبط في دلالته الاستعمالية بالمجال الاخلاقي، فان المتصوف الاسلامي بحكم ملته الدينية يكون متأسيا بسيرة النبي ﷺ في ذلك الذي كان خلقه القرآن كما ورد ذلك عن عائشة ام المؤمنين عندما سئلت عن خلق رسول الله. واخلاق القرآن هي المُعَبّر عنها بأخلاق الله المستمدة من القرآن نفسه، ولذلك ينصح ابن عربي الصوفي في ان "يجعل القرآن امامه ... فينظر الى ما وصف الحق به نفسه وفي أي حالة وصف نفسه بذلك الذي وصف نفسه، ومع من صرف ذلك الوصف الذي وصف به نفسه، فليقم الصوفي بهذا الوصف بتلك الحال مع ذلك الصنف."[3] وبِتَحَقُّق هذا التأسي والالتزام به تصبح حياة الصوفي كلها من الله وفي الله والى الله، حيث يصبح "الحق سمعه وبصره ويده ورجله وجميع قواه المصرفة له، فلا يتصرف الا بحق في حق لحق"[4] وهذه الدرجة التي يصلها الصوفي هي المعبر عنه في لغة القوم بمقام الفناء، حيث يفنى الصوفي عن ذاته، ليبقى ببقاء الله فهو المتصرف فيه على الاطلاق.

وقد جمعت مدونات التصوف الكثير من آداب الصوفية سواء ما تعلق بآدابهم مع الله تعالى ونبيه ﷺ، او في احوالهم، او فيما بينهم، وبينهم وبين الآخرين* وهي آداب جامعة لمكارم الاخلاق، حيث يكون الصوفي بفضلها كظهر الأرض يطؤها التقي والفاجر وذلك لعلو همتهم في التعلق بالله سبحانه وتعالى. وقد روي عن بعضهم، ان قيل له: "من اصحب

---

[1] الغزالي ابوحامد، المنقذ من الضلال. تح وتقديم: جميل صليبا وكامل عياد. دار الاندلس للطباعة والنشر والتوزيع. ط 1996. ص 130

[2] محمد شوقي الزين، التصوف، العرفان، الكنان. غربلة في المصطلح وقفزة في الرؤية. مجلة العرفان، المجلد1، العدد 01، جوان 2018. مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الاغواط. الجزائر. ص11

[3] الفتوحات المكية، مج3. ص: 401

[4] الفتوحات المكية، مج 3. ص: 403 :وهذا التصور عند ابن عربي مستند الى الحديث القدسي القائل : "لا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى احبه فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ..." الى آخر الحديث. وهو حديث اخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

* من بين هذه المدونات، الكتب المؤرخة للتصوف ورجالاته، منها: اللمع في تاريخ التصوف للسراج الطوسي، قوت القلوب لابي طالب المكي، التعرف لمذهب اهل التصوف للكلاباذي، الرسالة القشيرية للقشيري، عوارف المعارف لابي حفص السهروردي، وغيرها كثير في هذا الباب.

من الطوائف؟ قال: الصوفية، فان للقبيح عندهم وجها من المعاذير، وليس للكبير من العمل عندهم وقع يرفعونك به فتعجبك نفسك."[1]

وارتباط التصوف بالمجال الأخلاقي يجعل منه سلوكا بالدرجة الأولى، ولذلك قيل بان التصوف أحوال وليس اقوال، وما يُعبّرون به عن هذه الأحوال هو المشار اليه بالمعرفة، فتكون المعرفة بذلك ثمرة للسلوك. فلا معنى للنظر وهو المعرفة دون العمل، بل إن العمل أساس للنظر الذي يكون ترجمة له وتعبيرا عنه، فهو يتلوّن بحسب درجة التجربة وعمقها فالكلام متساوق مع المقام والحال المقترن بتجربة هذا الصوفي أو ذاك، ولما كانت الأحوال ذاتية عائدة الى فردانية المتصوف فان كل متصوف يتكلم وفقا لمواجيده الخاصة، ولذلك قلّما نجد اتفاقا في تعبيرهم عن أحوالهم ومواجيدهم . وليس ذاك الا رحمة بينهم كما عبر عنه الطوسي.

وميزة الترابط والتلاحم بين العمل والنظر الذي تقوم عليه التجربة الصوفية يجعل النظر الصوفي يبلغ حقائق الأشياء دون الوقوف عند ظواهرها ورسومها، وهو ما جعل د .طه عبد الرحمن يصف هذا الفعل عند المتصوّفة بالعقل المؤيد الذي هو في نظره"عبارة عن الفعل الذي يطلب به صاحبه معرفة أعيان الأشياء التي هي الأوصاف الباطنة والأفعال الداخلية للأشياء أو ذواتها، أي ما به يكون الشيء هو هو أو" هويته ."فهي ذات مشخصة في الوجود متحققة في العيان، ذات نحتاج في إدراكها، لا إلى النظر وحده، ولا إلى العمل معه، وإنما إليهما معا بالاستعانة بالتجربة، أو بتعبير جامع، إلى نظر عملي حي"[2]

## 3. <u>الأمير عبد القادر* والتصوف:</u>

تتميز شخصية الامير عبد القادر الحسني الجزائري بالتنوع والتعدد فبالاضافة الى ما اشتهر به كقائد عسكري ومؤسس الدولة الجزائرية، فانه كان اديبا وشاعرا ومفكرا خاض في شتى المعارف الاسلامية من كلام وفقه واصول وفلسفة، وقد تَحدّد ذلك كله بمسحة صوفية نشا وتربى عليها، "فالبعد الصوفي في شخصية الأمير ليس بُعداً عارضا او طارئا الجأته اليه الظروف، بل هو متجذر في أعماق فطرته، ويلمع من ثنايا سيرته من بدايتها الى نهايتها."[3] وما يدل على هذا التجذر للبعد الصوفي في حياة الأمير هو سيرته منذ نعومة اظافره، فقد تربى في اسرة كانت تنتمي الى الطريقة القادرية نسبة الى الشيخ المربي (عبد القادر

---

[1] السهروردي ابو حفص، عوارف المعارف. ضمن كتاب "إحياء علوم الدين"، ج5. دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان. ط1، 1406 هـ -1986م. ص: 80

[2] طه عبد الرحمن، العمل الديني وتجديد العقل. المركز الثقافي العربي، الدر البيضاء، المغرب. ط3، 2000م . ص: 121، 122

* انظر ترجمة الامير عبد القادر الجزائري الحسني في مقدمة كتاب "المواقف، في بعض اشارات القرآن الى الاسرار والمعارف" ج1 " تحقيق عبد الباقي مفتاح دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر. ط.1 ، 1426 هـ ، 2005 م من ص 6 الى ص 11 . وهي ترجمة منقولة عن كتاب "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل" لــ: محمد باشا ابن الامير عبد القادر.

[3] عبد الباقي مفتاح، مقدمة كتاب "المواقف"، ص: 12

الجيلاني)، وهو الامر الذي جعله يتشرب أصول الطريقة انطلاقا من هذه النسبة، اضافته الى اسفاره مع والده الى بلاد الحجاز واستفادته بمشايخ الطريق الصوفي في بلاد الشام والعراق حيث اخذا عهد الطريقة النقشبندية في الشام، وتجديد الإجازة في الطريقة القادرية ببغداد. كل ذلك عزز مشرب التصوف في نفس الأمير الشاب، إضافة الى ان البيئة الجزائرية آنذاك كانت بيئة حاضنة للطرق الصوفية بمختلف فروعها، فقد كان شيوخ التربية الصوفية مكتسحين للمجال الديني والعلمي والتربوي، الشيء الذي جعل من التصوف في شكله الطرقي مناخا عاما للبيئة الثقافية والدينية آنذاك.

ويقول الأمير عن علاقته في صباه بطريق القوم انه كان " مغرما بمطالعة كتب القوم _ رضي الله عنهم _ ... غير سالك طريقهم، فكنت في اثناء المطالعة اعثر على كلمات تصدر من سادات القوم وأكابرهم، يقف منها شعري، وتنقبض منها نفسي، مع ايماني بكلامهم، على مرادهم، لأنني على يقين من آدابهم الكاملة، واخلاقهم الفاضلة..."[1]

ويرى الباحثون في تصوف الأمير عبد القادر انه مر بمراحل ثلاث، منها ما ذكره جواد المرابط، "ان صلة الأمير عبد القادر بالتصوف كانت على ثلاثة مراحل كما يتبين ذلك لمن يتتبع سيرته.

المرحلة الأولى هي المرحلة التي سافر فيها الى بغداد مع المرحوم والده السيد محي الدين بعد أداء فريضة الحج سنة 1241 ه حيث زار فيه آثار وضريح القطب الرباني السيد عبد القادر الجيلاني قدس الله سره واخذا الاجازة بالطريقة القادرية عن الشيخ محمود القادري نقيب الاشراف.

والمرحلة الثانية هي التي انتهى بها الى الأفق الروحاني بوقدة الاضطرار والشوق في السجن او على الصح في خلوة (امبواز) التي أشار اليها في الموقف ال (211)* من كتابه.

اما المرحلة الثالثة فهي التي تم له فيها الفتح العظيم وكان ذلك عندما سافر حاجا سنة 1279 ه حيث اقام في مكة سنة ونصف مقبلا على العبادة والخلوة وحيث التقى فيه بالشيخ الجليل العارف بالله محمد الفاسي رئيس الطريقة الشاذلية وتتلمذ عليه وهو ما يشير اليه الأمير في قصيدته الرائية التي مطلعها

امسعود جاء السعد والخير واليسر  وولت جيوش النحس، ليس لها ذكر[2]

---

[1] الأمير عبد القادر، المواقف. ج1. ص122

[*] يراجع هذا الموقف في "المواقف في بعض إشارات القرآن الى الاسرار والمعارف. ج1، ص 494

[2] المرابط جواد، التصوف والأمير عبد القادر الحسني الجزائري. وزارة الثقافة الجزائرية، الجزائر2007 . ص: 27، 28

ويذهب الباحث عبد الباقي مفتاح في مقدمة تحقيقه لكتاب "المواقف" للأمير عبد القادر _ جريا على تقسيم جواد المرابط _ الى تقسيم تصوف الأمير الى ثلاث مراحل: التعلق ثم التخلق ثم التحقق. مفصِّلاً كل مرحلة وفقا لمسار حياة الأمير منذ صباه الى مرحلة الامارة الجهادية وهي مرحلة التعلق، ثم ما اعقبها بعد هذه المرحلة ابتداء من سجنه في امبواز ( Amboise) ثم فترة السنوات الأولى من استقراره في دمشق بعد إقامته في بروسة بتركيا. وهي مرحلة التخلق. وأخيرا مرحلة التحقق اين أصبح الأمير من العارفين المتحققين في التصوف، وهي المرحلة التي امتدت من رحلته الى الحج واقامته بمكة المكرمة، واستقراره النهائي بعد ذلك بدمشق الى ان وافته المنية سنة 1300 ه 1882 _م[1]

يكشف هذا المسار عن مدى اصالة التصوف في حياة الأمير عبد القادر، والذي يمثل امتدادا وراثيا لما كانت عليه عائلته في هذا المجال، وحتى فترة توليه لإمارة الجهاد ضد العدو الفرنسي انما كان بدافع ديني مفعم بالروح الصوفية التي تربى عليها في زاوية والده بالقيطنة في ايالة وهران آنذاك، وهي التابعة اليوم لولاية معسكر بالغرب الجزائري كما ان تصوف الأمير لم يقتصر على منهج الطريقة القادرية التي كانت عليه زاوية ابيه ومن قبل جده، بل تطعم بروافد منهجية أخرى منها الشاذلية والدرقاوية والنقشبندية، لينتهي الى المشرب الأكبري نسبة الى الشيخ محي الدين بن عربي الذي نهل من معدنه واعتبره شيخه الملهم لفتوحاته وتحققاته وهو ما انعكس بجلاء في كتابه "المواقف"

## 4. خصائص التصوف عند الأمير عبد القادر

### 1.4 تأثير الطريقة القادرية في تصوفه

تنسب الطريقة القادرية الى الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت 561 ه _ 1165 م) الذي اخذ على عاتقه القيام بمهام التربية وإصلاح النفوس في وقت شهد فيه عصره تمزق الامة والتكالب على الجاه والسلطان "فشعر قدس الله سره ان ذلك لم يكن الا لبعدهم عن الدين وان علاج ذلك انما يكون بالتربية وإصلاح النفوس وبتفهيمهم ما يتهددهم من اخطار فانصرف بكل همته واخلاصه الى الوعظ والإرشاد واثارة الشعور الايماني وتهذيب الاخلاق، والدعوة الى التوحيد والإخلاص لله تعالى."[2] وقد كان منهجه التربوي في ذلك ذا منحى صوفي يقوم على التخلية ثم التحلية، وهو ما يشكل معالم الطريق عند الصوفية كما يتفقون عليه. فغاية الطريق ونهاياته لا تصح الا بصحة البداية.

[1] انظر عبد الباقي مفتاح، مقدمة المواقف ابتداء من ص 12 الى ص 22

[2] جواد المرابط، مرجع سابق. ص 29

تميزت الطريقة القادرية بانها طريقة تربوية تقوم على تربية المريدين بما تتطلبه التربية الصوفية السليمة الملتزمة بتعاليم الكتاب والسنة، فكانت في جوهرها قائمة على الادب او حسن الخلق، ذلك ان الطريق الصوفي في عرف هذه الطريقة "له خطان: الأول راسي ويكون بمعاملة الخالق عز وجل بالطاعة والصدق والإخلاص، والآخر افقي، ويكون بمعاملة الخلق بالأدب. ومن هنا يقال: التصوف كله ادب .. اذ ان معاملة الخالق هي _ في حقيقة الامر _ القيام بآداب العبودية"[1] وهذا المفهوم للتصوف هو ما انعكس في علاقة الشيخ بالمريد، وفي اخلاق المريد، اذ مما اوجبه الجيلاني على مريديه من آداب: الفتوة، والايثار والصفح عند العثرات. التواضع والموافقة للإخوان وترك مخالفتهم ومنافرتهم والبعد عن المجادلة معهم. التغاضي عن عيوبهم. وغيرها من آداب الأخلاقية المستمدة من الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح.

هذه الخصائص التي تميزت بها الطريقة القادرية _ إضافة الى طابعها السلمي _ جعلها تلقى القبول في اصقاع العالم الإسلامي بفضل دعاتها وخلفاء الشيخ الجيلاني من أبنائه وسلالته.

وعلاقة اسرة الأمير عبد القادر بالطريقة القادرية ترجع الى اجداده الذين يرجع نسبهم الى سبط النبي محمد ﷺ الحسن رضي الله عنه. فقد ذكر محمد ابن الأمير عبد القادر في كتابه "تحفة الزائر" ان جد ابيه عبد القادر السيد محمد المعروف بالمجاهد "قرأ على علماء غريس وغيرهم من حين ترعرع الى حين برع واشتغل بالطريقة الى ان صار كعبة الاولياء ومقتدى العلماء" وفي حجه للبقاع المقدسة واخذه العلم عن علماء المشرق "لبس الخرقة القادرية من نقيب الاشراف ببغداد سيدي عبد الرحمن بن علي سليل الشيخ الرباني سيدي عبد القادر الجيلاني ... ولما رجع الى الوطن في الرحلة الأولى اختط قريته المعروفة بالقيطنة بوادي الحمّام وذلك سنة 206 ه ونشر الطريقة القادرية بعد ان طوى بساط ذكرها واحياها بعد ان درست آثار فخرها"[2] وعلى نفس النهج سار والد الأمير عبد القادر السيد محي الدين في نشر الطريقة وتوسيع مداها فكانت زاويته بالقيطنة مقصد المريدين وطلاب العلم الى جانب أدوارها الاجتماعية والتنظيمية.

ورث الأمير عبد القادر هذه الروح الصوفية القائمة على الخصال الحميدة متمثلا بها في سلوكه ومعاملاته، والتي انعكست في مسيرته الحياتية، فحتى جهاده للعدو الفرنسي انما كان منطلقة خصلة الفتوة التي كانت توجبها الطريقة القادرية في مريديها فهي صفة مستمدة من اخلاق النبلاء، الذين "لا يحملون السيف الا لمقاومة الظلم والاعداء ودفع الاضطهاد وتحرير البلاد، مترفعين عن استعمال الغدر او نقض العهد، وهي ميزات أساسية كان يتمتع بها أساتذة

---

[1] يوسف محمد طه زيدان، الطريق الصوفي وفروع القادرية بمصر. دار الجيل، بيروت _ لبنان ط1، 1991 . ص 53

[2] محمد ابن الامير، تحفة الزائر في مآثر الامير عبد القادر واخبار الجزائر، ج2، المطبعة التجارية _ عرزوزي وجاويش _ بالإسكندرية1903 . ص 301، 302

التصوف، وكذلك كان يتمتع بها الأمير عبد القادر طوال حياته وبشهادة اعدائه قبل أصدقائه. وكذلك سمو معاملته للأسرى من "القواد وكبار الضباط وحتى الجنود العاديين ما يشعر عن روح النبالة التي تعرف باسم الفتوة وهي التي عرفت بالغرب باسم الفروسية[1]

حتى وان كان الأمير عبد القادر كما يصرح في كتاب المواقف، انه لم يكن مطلعا في صباه على كتب القوم، إلا أن خصاله وسجاياه وسلوكه في عمومه انما كانت مستمدة من روح التصوف طبقا لتعاليم الطريقة القادرية التي تربى في احضانها، فكان تصوفه بذلك ذا طابع أخلاقي مستمد من عموم الاخلاق التي ارتضاها الله لعباده وعمل شيوخ التصوف على ضبطها وتقنينها وتربية المريدين عليها، وهي ما ستكون فيما بعد غرسا لترقيه الصوفي نحو العرفانية التي تتحقق في مرحلته الأخيرة من حياته.

## 2.4 المشرب الأكبري في تصوف الأمير عبد القادر

يذهب الباحث عبد الباقي مفتاح الى ان الأمير عبد القادر كان في تصوفه ذا مشرب اكبري، فقد ورثه عن اسرته كما ورث منهم الطريقة القادرية، فقد كان جده مصطفى والد محي الدين والد الأمير عبد القادر "شيخا للقادرية، كان أيضا من ورثة الطريقة الحاتمية _ او الاكبرية _ طريقة الشيخ الأكبر محي الدين محمد بن علي بن العربي الحاتمي الطائي. اجازه فيها المحدث الصوفي الشهير السيد محمد مرتضى الزبيدي (ت: 1205 هـ -1719 م) وهذه الوراثة الأسرية للمشرب الاكبري قد زادت رسوخا عندما صحب محي الدين وابنه عبد القادر _ وهو في نحو العشرين من عمره _ الشيخ المربي الشهير إمام الطريقة النقشبندية محمد خالد النقشبندي (1193 _ 1242 ه)" وهذه الوراثة للمشرب الاكبري _كما يرى عبد الباقي مفتاح _ اهلت الأمير عند اقامته في دمشق من "دراسة كتب الشيخ الأكبر التي لم يطلع عليه من قبل، وهي تعد بالمئات. وكلما ازداد عكوفا عليها ازداد بها شغفا وازدادت العلاقة الروحية بينه وبين الشيخ عمقا." وانتهت علاقته بالشيخ الأكبر بعد مرحلة التحقق والتمكين _ كما يرى عبد الباقي مفتاح _ الى الانتقال " من القوة الى الفعل، وعبر عنها في كتابه "المواقف" وذكر فيه بعض وقائعه ومشاهده الروحية لشيخه الأكبر كما في المواقف 294 و298 و346 و372"[2]

وفي اقامته بدمشق كان يعقد مجالسا لتدارس مختلف العلوم، حتى غدت هذه المجالس " مهوى افئدة عشاق التصوف ورقائق الادب والباحثين عن الحكمة، وقد فتن الجميع بما كان عليه الأمير من سمت الصلاح ووقار المنقطعين للعبادة، الى جانب لطف ايناس وحسن

[1] بركات محمد مراد، الأمير عبد القادر الجزائري المجاهد الصوفي. باتنة، الجزائر 1990. ص.60

[2] انظر عبد الباقي مفتاح، مقدمة تحقيق كتاب "المواقف، في بعض اشارات القرآن الى الاسرار والمعارف" ص 12 وص 20

مسامرة ... وهكذا لم يبق عالم الا وزاره"[1] كما يقوم بشرح كتاب الفتوحات المكية لابن عربي ويتدارسه مع طلابه، ويعود الفضل للأمير في كونه اول من" كَوّنَ الفتوحات المكية الكلية.. والدليل في هذا أننا نجد عبارة طبع على نفقة عبد القادر الحسني في كل الطبعات الأولى للفتوحات.."[2] فقد كانت نسخ الفتوحات السابقة كلها ناقصة حتى التي كانت عند الامير مما جعله يبعث بمساعدين له للنظر في مطابقة نسخته مع النسخة الاصلية الموجودة بقونية بتركيا قصد تصحيحها واكمالها.

ويعتبر كتاب "المواقف" للأمير الذي طبع بطبعات عديدة اختلفت في عنوانها الفرعي* كتابا صوفيا عرفانيا في الدرجة الأولى، وهو ما يؤكده ابنه محمد، حيث يقول: "وبرع في فنون علم الشريعة والحقيقة، وله تآليف عديدة، وحسبك منها كتاب المواقف في علم الحقيقة، وهو لعقد تآليفه واسطة النظام ولمطلع مجده بيت القصيد وحسن الختام، ومن أمعن النظر في خطبته أدرك منها فضله وأقرّ بعلو مرتبته"[3] وقد كانت مرجعيته العرفانية ومنهجه على طريقة الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي يقول الباحث ياسين بن عبيد في ذلك بأن: " المصادر بإجماعٍ تشير إلى المرجعية الأكبرية لفكر الأمير عبد القادر الصوفي، وليست المسألة مجرد افتراض " ويضيف أن " إحالات لافتة للأمير في أكثر مدونته شيوعا - المواقف -إلى الشيخ الأكبر مفادها أنه معلمه الأول وملهمه الأكبر وما إلى هذا، والثاني توارد الأمير على معجم ابن عربي واستغلاله إياه بما يؤكد سلطانه عليه."[4]

وبالرجوع الى كتاب " المواقف" نفسه نجد الأمير يحيل الى شيخه محي الدين في كذا من موقف، وينهج نهجه خاصة فيما يتعلق بمسائل الفتح والالهام الرباني، من ذلك ما جاء في الموقف الاول (1) الذي يفتتح به كتابه، والذي يفسر فيه الآية الكريمة﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[الاحزاب، أ:21] يكشف الامير انه تلقى هذه الآية تلقيا غيبيا روحانيا ، وفقا لما اعتاد عليه من الفتح الرباني. فهو يقول في ذلك: "فان الله تعالى عَوّدني، انه مهما اراد ان يأمرني، واو ينهاني، او يبشرني، او يحذرني، او يعلمني علما، او يفتيني في امر استفتيته فيه، الا ويأخذني مني مع بقاء الرسم، ثم يلقي الي ما اراد بإشارة آية كريمة من القرآن، ثم يردني الي، فارجع بالآية قرين العين، ملان اليدين، ثم يلهمني ما اراد بالآية، واتلقى الآية من غير حرف ولا صوت ولا جهة، ولقد تلقيت والمنة لله تعالى، نحو النصف

---

[1] جواد المرابط، مرجع سابق. ص 23، 24

[2] واسيني لعرج، النشأة الصوفية الحقّ هي نشأة التسامح التي تقرّها وحدة الوجود" ضمن ملف "الفجر" "الامير عبد القادر في عباءة محي الدين بن عربي "نشر في الفجر يوم 11 - 09 - 2011 https://www.djazairess.com/alfadjr/192109

* أهمها طبعة عبد الباقي مفتاح التي جاءت بعنوان: "المواقف في بعض إشارات القرآن، الى الاسرار والمعارف" ويستند في ذلك الى ما نص عليه الأمير نفسه في رؤيا رآها في ذلك، يراجع ص 25 من مقدمة المحقق للكتاب ط 2005

[3] محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر مرجع سابق. ص: 304

[4] بن عبيد ياسين، المرجعيات الأكبرية لفكر الأمير عبد القادر الصوفي. جريدة الفجر بتاريخ: 11 - 09 – 2011 https://www.djazairess.com/alfadjr/192109

من القرآن بهذا الطريق..."[1] ويستفاد من هذا الموقف ان الكثير من المواقف انما كانت على شاكلة فتح عرفاني رباني. والشيء نفسه نجده عند ابن عربي حينما يدعي ان كل ما يكتبه ليس بفعل نظر او تفكر انما هو من قبيل الوحي او الرؤيا.

واذا كان مواقف الأمير تنصب على تفسير باطني (بالمفهوم الصوفي) لبعض الآيات او الاحاديث او الحكم، وغيرها، فان هذا التفسير يرجع في اصله الى كتاب الله وسنة رسوله. جاء في الموقف (20) "طلبت من الحق _ تعالى _ ان يجعل لي نورا اكشف به، حتى اعرف ما آتي وما أذر. فقال لي في الحين: هاهو ذا في الكتاب والسنة. فانتبهت حينئذ لقوله _ تعالى _ ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: آ،15، 16] فعرفت انه لانور يرغب فيه الراغبون مثل الاستقامة على الكتاب والسنة. لأنه _ تعالى _ ضمن النجاة في العمل بهما، ومن ضمنهما في العمل بالكشف؛ ولذا قال استاذنا أبو الحسن الشاذلي: انه يرد عليّ الوارد فلا اقبله الا بشاهدين عدلين، هما الكتاب والسنة. او كما قال. وان طوق الشريعة لا يزول عن رقبة عارف ولا مكاشف مادام بدار التكليف"[2] وهو ما شكل منهج الشيخ الأكبر في كتبه اذ لا يفتأ من التأكيد على ان فتوحاته والهاماته انما هي من مدد فهمه للقرآن الكريم.

### 3.4 شمولية الرحمة عد الأمير عبد القادر كمؤشر على البعد الإنساني في تصوفه.

شمولية الرحمة الإلهية عند الأمير هي احد المرتكزات في عرفانه الصوفي والتي اثبتها نصا في كتابه "المواقف"، كما انها ترجمة لمشربه الاكبري متتبعا فيها ما سعى اليه الشيخ الأكبر حين ارتفع بالتوحيد ليجعله شاملا للوجود، ومتجلية في صوره من ادناها الى اعلاها ... كما انه تسامي يتجاوز حدود الثنائيات والاعتقادات. ويترتب عن ذلك ان الكل مشمول برحمة الله.

يتابع الأمير عبد القادر شيخه في المضمار من تصور الالوهية بانها سارية في الوجود بكامله، وهو ما عبر عنه بوحدة الوجود عند ابن عربي وكذا الأمير عبد القادر. وينص الأمير على شمولية الرحمة الإلهية في الكثير من مواقفه، منها ما جاء في الموقف (59) وهو الموقف الذي يفسر فيه الايات الأولى من سورة الفاتحة، قائلا: "من أراد ان ينظر الى تبشير الحق _ تعالى _ عباده بسعة رحمته، واخبارهم تلويحا بل تصريحا لمن عقل بعموم عفوه، وشمول معرفت، فلينظر فيما جعله الله فاتحة لكلامه _ تعالى _ المنزا على رسوله _ صلى الله عليه وسلم _ " منتهيا الى قوله: " ثم احبر تعالى: انه الرحمن الرحيم، بصيغة المبالغة، افادة للتكثير، بمعنى انه تعالى كامل الرحمة، بحيث لا يشوبها نقص.يرحم عباده بسبب وبغير سبب، كما اوجدهم بلا سبب غير رحمته. فلا سبب لرحمته عباده الا رحمته، فمن رحمته ايجادهم، ومن رحمته إسعادهم.

---

[1] الأمير عبد القادر الحسني الجزائري، كتاب "المواقف ..." مصدر سابق الموقف 01 ص: 105 .

[2] المواقف، مصدر سابق، ج1. ص 136

ثم أخبر تعالى: انه مالك يوم الدين، بمعنى مالك الجزاء، فيجازي كل أحد بما يريد مجازاته به. ومن المعلوم ضرورة ان الحق _ تعالى _ ارشدنا وندبنا في كتبه وعلى السنة رسله _ عليهم الصلاة والسلام _ الى العفو والصفح والستر فيما بيننا ومدح فاعل ذلك، ووعد بجزيل الاجر، بل جعله _ تعالى _ واجبا عليه، فقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى، آ: 42،42 ] وعلى من صيغ الوجوب. ومحال ان يأمر _ تعالى _ باستعمال مكارم الاخلاق، ويندب الى الاحسان، ثم لا يفعل ذلك هو مع عباده ولا يعاملهم به، تعالى عن ذلك ..."[1]

في هذا الموقف بيان لعموم الرحمة الشاملة لعموم الخلق، وهو ما يتناغم مع مواقفه العملية المستمدة من هذه الرؤية الرحمانية لجميع الخلق. وقد كانت مواقفه متسمة بالعفو والصفح والتسامح مع معاونيه، وخصومه من القبائل التي لم تتعاون معه في جهاده، ومع اعدائه من الفرنسيين الغزاة. " فكان يعامل اسرى الحرب معاملة الضيوف، ويوصي جنوده بالإحسان اليهم، ويأمر بتقديم احسن الطعام اليهم، وطلب من اسقف الجزائر ان يرسل اليهم قسيسا خصيصا لهم ليصلي بهم."[2] ومن اشهر مواقفه المعبرة عن التسامح والمعبرة عن فكرة التعايش بين الأديان، موقفه من احداث ماي 1860 تلك الفتنة التي وقعت ببلاد الشام (دمشق) بين المسلمين والمسيحيين "حيث اندفع الأمير لإطفاء نار الفتنة، وقبل وقوع الفتنة جمع الأمير عبد القادر الأعيان ووجهاء القوم من أهالي دمشق وخاطب فيهم خطبة شهيرة حذرهم فيها من عواقب الحروب الطائفية" الطائشة والفتن النائمة، وسفك الدماء، وبين لهم أن الأديان تدعو إلى التسامح والتعارف والتعاون في كنف الاحترام المتبادل بين البشر. أما الحروب المروعة ما هي إلا نتيجة فهم ساذج للدين الذي يروجه معتنقي الفكر المنحرف الضال، قائلا: "إن الأديان وفي مقدمتها الدين الإسلامي أجل وأقدس من أن يكون خنجر جهالة أو معول طيش أو صرخات نذالة تدوي بها أفواه الحثالة من القوم. أحذركم أن تجعلوا لشيطان الجهل فيكم نصيبا، أو أن يكون له إلى نفوسكم سبيلا"[3]

استطاع الامير اخماد هذه الفتنة التي اعتبرها منافية للقيم الدينية السمحة، وإنها من شيطان الجهل. وقد شهد له حكام العالم ورؤساؤه ومفكريه بهذا الموقف الانساني فكرم بالعديد من الاوسمة الفخرية، كما أهدت إليه ملكة بريطانيا بندقية مرصعة بالذهب، فخاطبها قائلا: " إنني لم أفعل إلا ما توجبه على فرائض الدين، ولوازم الإنسانية". وبذلك يكون الامير قد جعل من نفسه انموذجا يقتدى به في التسامح والتعايش السلمي بين بني البشر، وليس ذاك الا تأكيدا لما تشربه من روح التصوف الذي كله اخلاق.

ومن بين تبعات هذا الموقف الإنساني للأمير عبد القادر، ان اثارت مسالة انتسابه للماسونية. والتي هي جمعية من بين أهدافها الدعوة الى توحيد الأديان، ومن ثم اتهم الأمير

---

[1] الأمير عبد القادر، المواقف، ج1، ص: 185 ، 186، 187

[2] نابي بوعلي ، التسامح وابعاده الإنسانية في فكر الأمير عبد القادر الجزائري، مجلة الحوار الثقافي، جامعة مستغانم ، الجزائر. عدد 11 شتاء 2017. ص : 28

[3] نفسه، ص 28

بهذه الدعوة. الا انه في زمنه، وبحسب ما ورد في كتاب ابنه محمد "تحفة الزائر..." كانت تسمى بـــــــ "الجمعية الفرنماسونية" والتي راسلته آنذاك تشكره على موقفه من احداث فتنة دمشق، سنة 1860 وجاء في نص الرسالة: "اعلم أيها الأمير أن العالم المتمدن قد كلل هامتكم الشريفة المقدسة بإكليل الشرف والافتخار. ونحن نقدم إليكم فرحنا بكونكم تسميتم من المحكوم لهم بحسن السيرة من، أي فرقة كانوا أو دين، الذين أظهروا أنفسهم بكمال الإنسانية. وأنت قد أظهرت نفسك إنساناً قبل الكل. ولم تسمع إلا إلى الهامات ربانية في قلبك أمرتك بمقاومة نار مشتعلة من الهيجان البربري، والتعصب الجاهلي! نعم إنك النائب الوحيد للأمة القوية العربية التي أوروبا مديونة بقسم عظيم من تمدنها وعلومها التي استنارت بها. ولقد أثبت بأعمالك وبكرم شيمك أن هذا الجنس لم ينحط اعتباره السابق. وهو وإن كان الآن في سنة من النوم فسيستيقظ للأعمال العظيمة باستدعاءٍ نفس قوية نظير نفسك"[1]

"إن رسالة الجمعية الماسونية تعبر عن إعجاب فائق بتصرف الأمير. ورأت الجمعية فيه "إنساناً كاملاً"... وهي التي بادرت إلى طلب وده بعد ذيوع صيته عالمياً. وهي التي انتهزت الفرصة لتستقوي بسمعته التي ملأت الآفاق. ويكمن القول بكل ثقة بأن الأمير عبد القادر كان أهم شخصية في القرن التاسع عشر الميلادي في التعبير عن إنسانية الإنسان وارتقائه فوق أنانيته وغرائزه. وإذا كان الأمير قد تعامل معها بدبلوماسيته المعهودة فهذا لا يعني أنه صار عضواً فاعلاً فيها أو أنه تخلى عن دينه وانتقل إلى دين جديد"[2]

## 5. الخاتمة:

يتبين لنا من خلال ما تم عرضه حول تصوف الامير عبد القادر في بعده الانساني، ان الاسلام عموما، ومنه تصوفه الذي هو جوهر رسالته، انما هو دعوة الى التحلي بمكارم الاخلاق، وهي المعبر عنها في اصطلاحات الصوفية "بحقوق العبودية"، فتحقق هذه

[1] محمد ابن الامير، تحفة الزائر. ج2. ص 101
[2] انظر: مجمع اللغة العربية بدمشق، من مواقف الامير عبد القادر. ص 27

العبودية انما يكون في ادب التعامل مع الخالق، ادب التعامل مع الخلق. وقوام ذلك كاه هو حسن الخلق.

وقد كانت سيرة الامير عبد القادر انعكاس لذلك، فهو ما يفتأ يعاهد نفسه بالمجاهدة ليتغلب على اهواء نفسه وشهواتها، كما يجاهد نفسه في تعامله مع الآخرين حتى لا يكون لنفسه حظ لها. فقد كان بذلك شخصا ربانيا متخلقا بأخلاق الله في الامر والنهي، ومواقفه مع غيره تشهد له بذلك، اذ كانت معاملاته نابعة عن تلك الروح وما تأسست عليه من قيم.

ولما كان التصوف في جوهره دعوة مسالمة تحاطب القلوب قبل الجوارح، فان مواقف الامير الجهادية لم تكن حبا في حمل السلاح، وهو الذي ورد عنه بان اعباء الجهاد الهته عن العبادة والانقطاع لها، فقد كان جهاده جهاد دفع لصائل غزا ارض المسلمين فكان من اوجب الواجبات ان يعلن الجهاد ولم يتأخر عن ذلك. وفي خضم هذا العبء فانه كان متسلحا على الدوام بالروح الصوفية السمحة في تعامله مع جنوده او خصومه من الداخل وحتى عدوه. وبعد مرحلته جهاده كان داعية للسلام ونبذ العنف والحروب وهو ما جعله يحظى باحترام وتقدير الجميع وانه شخصية عالمية ممثلة للتسامح والتعايش بين بني البشر في إطار الاخوة الانسانية.

## المصادر والمراجع:


1. الامير عبد القادر الجزائري الحسني في مقدمة كتاب "المواقف، في بعض اشارات القرآن الى الاسرار والمعارف" تحقيق عبد الباقي مفتاح دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر. ط.1 ، 1426 هـ ، 2005م
2. محمد ابن الامير، تحفة الزائر في مآثر الامير عبد القادر واخبار الجزائر، ، المطبعة التجارية _ عرزوزي وجاويش _ بالإسكندرية1903 .
3. محي الدين بن عربي، الفتوحات المكية. مج 3 ، ضبطه وصححه ووضع فهارسه: شمس الدين أحمد منشورات بيضون محمد علي. دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان. ط1،1999.

**4.** الغزالي ابوحامد، المنقذ من الضلال. تح وتقديم: جميل صليبا وكامل عياد. دار الاندلس للطباعة والنشر والتوزيع. ط 1996.
**5.** السهروردي ابو حفص، عوارف المعارف. ضمن كتاب "إحياء علوم الدين"، ج5. دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان. ط1، 1406 هـ -1986م.
**6.** المرابط جواد، التصوف والأمير عبد القادر الحسني الجزائري. وزارة الثقافة الجزائرية، الجزائر 2007
**7.** طه عبد الرحمن، العمل الديني وتجديد العقل. المركز الثقافي العربي، الدر البيضاء، المغرب. ط3، 2000م
**8.** يوسف محمد طه زيدان، الطريق الصوفي وفروع القادرية بمصر. دار الجيل، بيروت _ لبنان ط1، 1991 .
**9.** بركات محمد مراد، الأمير عبد القادر الجزائري المجاهد الصوفي. باتنة، الجزائر 1990.
**10.** محمد شوقي الزين، التصوف، العرفان، الكنان. غربلة في المصطلح وقفزة في الرؤية. مجلة العرفان، المجلد1، العدد 01، جوان 2018. مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الاغواط. الجزائر.
**11.** نابي بوعلي ، التسامح وابعاده الإنسانية في فكر الأمير عبد القادر الجزائري، مجلة الحوار الثقافي، جامعة مستغانم ، الجزائر. عدد 11 شتاء 2017.
**12.** واسيني لعرج، النشأة الصوفية الحقّ هي نشأة التسامح التي تقرّها وحدة الوجود" ضمن ملف "الفجر" "الامير عبد القادر في عباءة محي الدين بن عربي "نشر في الفجر يوم 11 - 09 - 2011 https://www.djazairess.com/alfadjr/192109
**13.** بن عبيد ياسين، المرجعيات الأكبرية لفكر الأمير عبد القادر الصوفي. جريدة الفجر بتاريخ: 11 - 09 – 2011 https://www.djazairess.com/alfadjr/192109
14. من مواقف الامير عبد القادر. مجمع اللغة العربية بدمشق